المحاضرة-٧-

-الدراسات الثقافية وسوسولوجيا الفن-

تمهيد: لقد شهدت العقود الأخيرة إهتماما كبيرا بقضايا الثقافة والدراسات الثقافية،غير أن أهمية ذلك لا تزال غير مفهومة،حيث أن هناك مجموعة كبيرة من المؤلفين القدامى والمحدثين تعرضوا لهذه القضايا الثقافية بطرق مختلفة وعديدة فالتصورات ذات الصلة بالثقافة لا بد لأن تعكس وتعتمد حقا على تعريفات الثقافة إلا أن الاختلاف في تحديد المفهوم أدى إلى إنقسام وهو نقطة الخلاف بين الدراسات الثقافية أو بالأحرى المهتمين بنظرية ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية وعلم الاجتماع والعلوم الإجتماعية،لأن تعريفات لمفهوم الثقافية تمضي في مسارين:أولهما يعرف الثقافة باعتبارها أسلوب للعيش والثاني يعرفها على أنها كل أفكار الفن،الذي يشار إليه كأحد أوجه الثقافة الإجتماعية والتطور الإجتماعي.

وبحديثنا عن الفن من الجانب الإجتماعي فقد أظهرت نتائج بحث بإيطاليا أن ٥.٠من الإنتاج السوسيولوجي يمكن أن يكون من ضمن سوسيولوجيا الفن وهذا ما يوضح أن المعايير التي ترسم حدود هذا العلم مازالت غامضة وأن أهميته لا تقاس بمدى حجمه الكمي.

الدراسات الثقافية:

١- **تعريف(الثقافة-الايدولوجيا):**

أ- **الثقافة:** قبل أن نتطرق إلى تعريف الدراسات الثقافية لا بد أولا من تعريف الثقافة حيث أن هناك صعوبة في تحديد تعريف دقيق حيث يرى اثنان من علماء الإجتماع وهما **الفريد كوبر وكلايد كلوكهون** الدلالات المتنوعة لكلمة ثقافة وقرينتها حضارة فعثر على ١٦٤ تعريف لما تعنيه الكلمة ،ولقد اضطر الكاتبان بسبب طبيعة الحقل الشائك والمفتوح إلى توسيع التعريف وتفريقه إلى ٦ أجزاء.[١]

أولا: الثقافة تتكون من أنماط فكرية وقيم ومعتقدات شائعة بين الأفراد.

ثانيا: هي مجموعة ما تميزها مجموعات أخرى فلكل مجموعة ثقافتها الخاصة.

ثالثا: الثقافة تحتوي على معنى يستطيع الفرد بواسطته أن يستوعب مايدور حوله .

رابعا: تتجسد الثافة في أفكار وقيم ومعتقدات ورموز،وفي نتاج من صنع لانسان(التصوير واللغة).

خامسا: الثقافة تورث وتنقل عبر الأجيال،وتعلم بوصفها معتقدات طبيعية ومفروغا منها أكثر من كونها مادة مصنوعة وتعليمية.

سادسا: الثقافة اعتباطية (عشوائية) لكونها من نتاج النشاط الانساني وليست فعلا من أفعال الطبيعة وهي معرضة للتغيير في حال تغيرت أوضاع حياة المجموعة.

ب- **الايدولوجيا:** يرجع أصل الكلمة إلى مقطعين وهي **ايديا** والتي مرت بدلالات كثيرة قبل أن تدرك معنى الفكرة ومن هذه الدلالات"الشكل،المظهر الصنف،الطبيعة الشكل المثالي،النموذج" والمقطع الآخر **لوجي logic** والذي يدل على فكرة العلم أو المنهج المعرفي أو الفكري،ففي قاموس oxfford فلم ينص على هذه الدلالة الحديثة إلا في ملحقه الذي طبع عام ١٩٧٦ حيث عرف الإيدولوجيا بأنها "نظام أو منظومة systeme منهجية للأفكار وتتصل عامة بالسياسة أو المجتمع وسلوك طبقة أو جماعة كما يمكن اعتبارها تبريرا للقيام بأعمال معينة ولكن هذه المنظومة بصفة خاصة موضوع اعتناق ضمني أو عام تبنى بالرغم مما يتمسك به المرء وبغض النظر أيضا عن اتجاه مجرى الحياة ،كما نجد في قاموس كاسل أنه جاء لفظ ايدولوجي ومعين

---

[١] ديفيد انغليز وجون هيوسون،ترجمة لما نصير:مدخل سوسيولوجيا الثقافة،ط١،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،بيروت،٢٠١٣،ص١٦

علم الافكار خاصة ذلك الذي أعلن بواسطة "كونداياك" ووضع نظرية خيالية وفلسفية سياسية أو قومية أو فلسفة اجتماعية أما الايدولوجي فهو "الانسان الذي اتبع أو الذي يتعامل مع الافكار والخيال المثالي غير عملي".

٢- **تعريف الدراسات الثقافية و أنواع الثقافات:**

تعرف الدراسات الثقافية بأنهاكهي مزيج من تيارات فكرية ونظرية وفنية متنوعة المرجعيات لأجل بناء نماذج للتحليل وتنصب على الممارسات والخطابات في تنوعها وتعدد أشكالها" وكما أنها تعتبر خلل أكاديمي يشمل:الأدب السباقات الثقافية،الكتابات النسوية، الاستشراقي،الرقص والموسيقى،المسلسلات والأفلام السينمائية،والموضة.

أنواع الثقافات:

١- **الثقافة النخبوية:** هي الثقافة التي تحصلت عليها نخبة من المجتمع بواسطة عدة وسائل منها الكتب، وهي ثقافة مكتوبة لا يتحصل عليها إلا من يعرف القراءة والكتابة.

٢- **القافة الشعبية:** هي مجموع العناصر التي تشكل ثقافة المجتمع المسيطرة في أي بلد،غالبا باستخدام إعلام شعبية،تنتج هذه الثقافة من التفاعلات اليومية بين عناصر المجتمع اضافة لحاجاته ورغباته التي تشكل الحياة اليومية للقطاع الغالب من المجتمع.

٣- **الفلكلور:** عرف وليام جون ترمز الفلكلور بأنه: العقائد المأثورة وقصص الخوارق والعادات الجارية بين العامة من الناس عبر العصور من السبوك والعادات والتقاليد والمعتقدات الخرافية والأغاني الروائية والامثلة الشعبية وغيرها.[١]

٣- **نشأة الدراسات الثقافية:**[٢]

قبل الحديث عن نشأة الدراسات الثقافية نحاول معرفة العوامل والاسباب التي كانت سبب في ظهورها.

أ- **العامل الأول:** تزايد عدد الظواهر والمشكلات التي تعجز المناهج السياسية والاقتصادية التقليدية عن تفسيرها وهو ما أدى إلى ظهور عدد من الباحثين والمثقفين والعلماء اللذين بدأوا يعبرون عن ضيقهم من هيمنة تلك العوامل على عمليات فهم الظواهر في المجتمعات

---

[١] رمضان الصباغ:الفن والايدولوجيا،دار الوفاء للطباعة والنشر ط ١،مصر ٢٠٠٥ ص٤٤-٤٨.

[٢] Sadaouifatima.blogspot.com/2016/12/fatima.html?m=1
تحولات الدراسات الثقافية ومساهمتها في المجال الاهلامي الأكاديمي،سعداوي فاطمة تاريخ الزيارات ٢٠٢٠/٠٤/٢٣ على الساعة ٢٢h02

المختلفة وتفسيرها وشعورهم بأنها غير كافية واهمال المداخل الثقافية وتجاهل امكانياتها التفسيرية.

ب- **العامل الثاني:** تزايد نزعة تنميم الظواهر والمبالغة في استخدام المناهج الكمية والاحصائية في الدراسات الاجتماعية حيث كان الباحث الاجتماعي النموذجي الذي يستحق وصف باحث علمي موضوعي ومحايد هو ذلك الباحث الذي يعمد إلى تحويل الظاهرة إلى عدد من المؤشرات التي يمكن قياسها كميا،حتى لو أدى ذلك إلى اسبتعاد دراسة تلك العناصر الثقافية من الظاهرة التي يصعب قياسها كميا.

ج- **العامل الثالث:** هو العامل يتعلق بمراجعة مسألة الموضوعية والذاتية حيث كان الاتجاه السائد وحتى عقود قريبة أن النموذد السائد للعلوم الطبيعية التي لا بد أن تتوفر في البحث مفاهيم واجراءات منهجية دقيقة،بحيث أنه لو طبقنا أكثر من باحث ذات المنهجية فلا بد أن يصلوا إلى ذات النتائج وكان التصور أن العلوم الإجتماعية لا بد أن تحاول الوصول إلى ذات النتائج و نفس المستوى.

وهذه العوامل تصب كلها في الحاجة لتغيير المناهج المستخدمة انطلاقا من المناهج الكمية والإحصائية ومراجعة مسألة الموضوعية والذاتية في معالجة وتفسير الظواهر الإجتماعية.

ولأن هناك العديد من النماذج مثلت ارهاصات لظهور الدراسات الثقافية كان أهمها العالم الإجتماعي الألماني **ماكس فيبر** الذي حاول الإجابة على السؤال:**لماذا نشأت الرأسمالية في انجلترا و ألمانيا ولم تنشأ في مجتمعات أوروبا الأخرى؟.**

و جاء تغيير الدراسات الثقافية من خلال مركز الدراسات الثقافية بجامعة برمنغهام الذي تأسس سنة ١٩٦٤.

منذ السبعينات بدأت الدراسات الثقافية في الانتقال إلى مجتمعات خارج بريطانيا حيث هاجرت غلى كل من الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وفرنسا والهند وخلال الثمانينات أصبحت الدراسات الثقافية في كل دولة تتسم بمميزات القومية ومستفلة.

كان لكتاب"الاستشراق" لاايدوارد سعيد ١٩٧٨ علامة مهمة في تطور الدراسات الثقافية خاصة تفسيره للكيفية التي أثر بها الإستشراق على الادراكات الغربية على الاسلام والشرق الأوسط،حيث أوضح أنه في الوقت الذي كان فيه الفرنسيون والبريطانيون منهمكين في توسيع نطاق مستعمراتهم وترسيخ دعائم نفوذهم،تشكلت أيضا لديهم الافكار السلبية

المرتبطة بالشعوبالخاضعة للإستعمار،ففي خضم الأعمال الأدبية والدراسة كان يتم تقديم المستعمرين بوصفهم اناسا يغلب عليهم التدني وضيق الأفق والفساد الأخلاق والنزاعات.

خصوصية سوسيولوجيا الفن والثقافة:

سوسيولوجيا الفن ليس هناك فرع سوسيولوجي آخر تتعايش فيه أجيال فكرية،أو معايير مرجعية غير متجانسة مقارنة بالتقليد الثنائي لتاريخ الفن الذي يعالج لعلاقات بين الفنانين والأعمال الفنية وبالجماليات التي تعالج العلاقات بين المشاهدين ولأعمال الفنية فإن سوسيولوجيا الفن تعاني من حداثة سنها وتعدد مفاهيمها التي تعكس تعدد تعريفات وممارسات السوسيولوجيا في آن واحد.

إضافة غلى ذلك فإن سعر موضوعها. وما يثيره من تنوع وغزارة في الخطابات لا يفسحان في المجال أمام التساؤل عن المناهج والوسائل والإشكاليات فكيف يمكن بناء المقاربة السوسيولوجية المحضى حينما يكون مجالها حافلا بالدراسات على اختلافها وتنوعها ومتخمة إلى هذا الحد من التثمينات؟

المدارس الكبرى التي اهتمت بالدراسات الثقافية:

أ- **مدرسة فرانكفورت:**[1] إن مدرسة فرانكفورت هي عبارة عن جماعة من المنرين الامريكين الألمان الذين طوروا تحليلات قوية للتغيرات الحاصلة في المجتمعات الرأسمالية الغربية منذ نظرية ماركس الكلاسيكية،فقد قام العاملون في معهد الدراسات الاجتماعية في فرانكفورت بألمانيا في أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات مثل **ماكس هوركهايمور وتيدور أدورنو** وغيرهم بتحليل عدد كبير من الظواهر الثقافية بدأ من الثقافة الجماهرية والاتصال إلى الموسيقى الكلاسيكية والأدب وانتجت مدرسة فرانكفورت أيضا بعض أعمالها الأولى ضمن النظرية النقدية حول أهمية الثقافة الجماهرية والاتصال في مجال اعادة الانتاج الاجتماعي والهيمنة وفي نظريتها حول صناعة الثقافة،طرحت مدرسة فرانكفورت النماذج الأولى للدراسات الثقافية النقدية التي تحلل عمليات الانتاج الثقافي والاقتصاد السياسي وسياسات النصوص الثقافية،وتلقي الجمهور واستخدام الأعمال الفنية الثقافية.

إن مدرسة فرانكفورت هي أول من بدأت العمل في مجال الدراسات النقدية للإتصال الجماهيري والثقافة،وأسفر هذا عن أول نظرية نقديةحول الصناعات الثقافية.

---

[1] حسين عبد الحميد،أحمد رشوان:الفلكلور والفنون الشعبية من منظور علم الإجتماع، المكتب الجامعي الحديث الاسكندرية، ١٩٩٣،ص٠٢.

كذلك طورت مدرسة فرانكفورت خلال الثلاثينات مقاربة نقدية متعددة التخصصات الدراسات الثقافية،ودراسات الإتصال وتحليل الآثار الإجتماعية والايدولوجية لوسائل الاعلام وصاغت المدرسة خلاله مصطلح **صناعة الثقافة**.

وركزت مدرسة فرانكفورت باهتمام على التكنولوجيا والثقافة. لتشير إلى الكيفية التي أصبحت بها التكنولوجيا قوة رئيسية للانتاج وأسلوب تكوين التنظيم والسيطرة عليه.

ولأنها من ضحايا الفاشبة،لقد شهدت مدرسة فرانكفورت أولا السبل التي انتهجتها لإستخدام أدوات الثقافة الجماهرية،وأثناء وجود أعضائها بالمنفى بالو.م.أ اعتقدوا أن الثقافة الأمريكية ترقى لأعلى درجات الايدولوجية وعملت على تعزيز مصالح الرأسمالية الأمريكية.

مدرسة فرانكفورت والدراسات الثقافية البريطانية:[1] في حين قامت فيه مدرسة فرانكفورت بتحليل الأوضاع الثقافية في مرحلة الرأسمالية الاحتكارية التي انتجت نظام الانتاج والاستهلاك الشاملنظهرت الدراسات الثقافية البريطانية في الستينات عندما كان هناك أولا مقاومة عالمية واسعة النطاق للرأسمالية الاستهلاكية وتصاعدت الحركات الثورية،ومن ثم ظهور مرحلة جديدة من رأس المال،توصف بمرحلة ما بعد الفوردية،وما بعد الحداثة أو غيرها من المصطلحات التي وصفت تكوينا اجتماعيا وثقافيا متلونا وموضع صراع دائم.

ب- **ستيوارت هول ومدرسة برمنجهام(المدرسة البريطانية):**[2]

بدأت الدراسات الثقافية البريطانية في شكلها المعاصر في أواخر الخمسينات وكانت جذورها في المدارس الثانوية وتعليم الكبار وخارج الأقسام الجامعية،وضمت قائمة الشخصيات المهمة في الموجة الأولى منها التي تناولت بالكتابة الجادة ثقافة الطبقة العاملة في فترة ما بعد الحرب،أسماء **ريموند ويليامز،ادوارد يومبسون،و ريتشارد هوجارت** ويمثل الكتاب الثلاثة المقاربة التي نعتها هول في وقت لاحق بالاتجاه الثقافي عانيا بها محاولة فهم أسبوب الناس في العيش من حيث الخبرة بالتراث واللغة والوعي الطبقي وقارن ذلك مع التقليد الأوروبي للبنيوية،فالأخيرة سعت إلى وضع التجربة الشخصية والشعبية في سياق الثقافة والطبقة والمادية التاريخية،ولعل التفسير الصحيح لعمل هول في السبعينات،هو أنه كان يسعى إلى المزاوجة بين أفضل العناصر في الاتجاه الثقافي والبنيوية لانتاج نوليفة جديدة.

---

[1] تيم ادواردز،ترجمة محمود أحمد عبد الله:النظرية الثقافية وجهات نظر كلاسيكية ومعاصرة،ط١،القاهرة،المركز القومي للترجمة،٢٠١٢،ص١٠٧.

[2] المرجع نفسه،ص١٣٨،١٣٣٣،١٣١..

كان دور **هوجارت** في تطوير الدراسات الثقافية في الواقع محوريا ولم يعطي حقه في التقييمات الثانوية،فحين النظر في النجاح الشعبي لكتابه الذي دار حول سيرة حياةالطبقة العاملة في ويست رايدينج والمعنون ب **أغراض محاولامية** نجده يمثل نموذجا أوليا للتعامل الجاد مع ثقافة الطبقة العاملة وتكمن الاهمية الثقافية الكبيرة لإنجاز هوجارت في اقناع جامعة برمنجهام لقبول توصية لتأسيس مركز الدراسات الثقافية المعاصرة في الحرم الجامعي وانشئ هذا الحصن في الأكاديمية من أجل القيام بدراسة دقيقة للطبقة وللثقافة ،وكان **هوجارت** هو نفسه المدير المؤسس للمركز وفي عام ١٩٦٤ كان من ضمن ما قام به هو توظيف ستيوارت هول في كلية تشيلسي جامعة لندن للمشاركة في تطوير المناهج الدراسية والتدريس. وكان مركز **برمنجهام** بقرية لم يسبق لها مثيل في التعليم البريطاني العالي ويتذكره هول باعتباره يمثل فترة الاثارة الهائلة في عمله الفكري،وكان به نصيب الاسد من تطوير المناهج الدراسية والتنظيم التربوي وكان رؤية هوجارت الأصلية للمركز كمنظمة مكرسة لمشروع ثلاثي للتعليم والبحث:**التاريخي،الفلسفي،الاجتماعي،النقد،ادبي.** واكثر العناصر وضوحا هو العنصر الأخير ولكن تحت قيادة هول،ابتداءا من الستينات فصاعدا ،أصبح النشاط الأكاديمي أكثر ميلا نحو النظرية والسياسة.

ج- التحليل التأويلي وتشكيل الاجتماعي(ميشيل فوكو)(الحداثة أو ما بعد البنيوية):[1]

خطى عمل ميشيل فوكو مجموعة ضخمة من المواضيع وكان له تأثير عبر عدد متنوع من التخصصات وفي الوقت نفسه يمكن أن يكون ذلك محير للراغبين في فهم آثار عمله عند تحليل العلاقات الثقافية،فقد كان **فوكو** فيلسوفا مقتنعا يتعمد تجنب لأي مدرسة فكرية معينة،وعلى الرغم مما يقوله عن نفسه،فإن الكتاب قد حددوا له أصول انتمائه الفكري والتأثيرات التي تعرض لها وثمرة حواراته مع التقاليد الفكرية وأعمال غيره من العلماء،من قبل **نيتشه وفيبر،وماركس وهارماس والنسويه**، واقترح المعلقون على أعماله أيضا مصطلحات جديدة للوقوف على جوهر مقاربته،"التحليلات التفسيرية" و "وسائط المعلومات" بالإضافة إلى ذلك أصبحت أفكاره مؤثرة في مجموعة متنوعة من المجالات البحثية إلى جانب الدراسات الثقافية.

[1] تيم ادواردز،مرجع سابق، ص ٢٢٣،٢٢٧،٢٢٥.

يستخدم فوكو ادراته المنهجية لتعطيل التاريخ في نفس الوقت الذي يعطيه اعادة تكوين على مستوى السلطة والمعرفة،وهذا يجعل مقارته مميزة جدا وذات صلة بالنظرية الإجتماعية والتحليل الثقافي.

ففي كتابه**أركيولوجيا المعرفة** يناقش فوكو الاركيولوجيا بإعتبارها وسيلة لتحليل العبارة الواردة بالأرشيف التاريخي،كذلك فإن الأركيولوجيا تصف الخطابات كتطبيقات محددة بالارشيف ويكون الأرشيف النظام العام لتشكيل وتحويل العبارات.

أخذ فوكو مفهوم الجينالوجيا من كتابات نيتشه،ولديه تحافظ الجينالوجيا على عناصر من الأركيولوجيا بما في ذلك تحليل العبارات من الأرشيف وتنشئ الجينالوجيا نفسها من عباءة علم الاريكيولوجيا في مقاربة الخطاب وفي حين توفر الاركيولوجيا لفظة أو شريحة من العلاقات الخطابية،فإن الجينالوجيا تتركز على الجوانب الإجرائية لشبكة الخطاب وطابعها المستمر.

<u>علاقة الفن بالثقافة والسوسولوجيا:</u> يعتبر الفن أداة من أدوات تطبيق الثقافة من جميع النواحي إضافة إلى مساهمته بشكل فعال في رفع المستوى الثقافي على جميع الأصعدة وتساهم الثقافة في تنمية المدارك وخلق أنواع جديدة من الفنون من الناحية العملية والجمالية وهذا بوضع العلاقة الوطيدة بين الفن والثقافة والبنى التركيبية المشتركة بين المجالين فعادة ترتبط المصطلحات مع بعضها البعض وبما أنم الفن هو لغة حوار بين عدد من الثقافات وأداة تطبيق لتلك الثقافات فإنه يهدف إلى إنشاء نوع من الفضاء الحواري لتكوين معاني جديدة ذات شكل جمالي للثقافة

وهذا ما يبين أن الثقافة عبارة عن مركب يتضمن جميع العقائد والمعارف والأخلاق والفنون والعادات والقوانين ولأن الثقافة في معانيها ومركباتها ترتبط ارتباطا وثيقا بالفنون وأن لا وجود للثقافة دون فن فهي تتحد به لينتج الإبداع.

خلاصة:الفن نقل مقصود لخبرة ما بوصفها غاية في ذاتها ومحتوى تلك الخبرة ضمن سياقها الثقافي قد يحدد إن كان العمل الفني شعبيا أو عابرا مهما أو تافها لكنه فن في كل الأحوال لذلك نجد بعض الدراسات الثقافية والإجتماعية التي انجزت وما مر به الفن عبر التاريخ وعلاقته بالعلوم الأخرى،فالمجد أن علماء الإجتماع لم يرد أي حاجز أو انفصال بين الفن والثقافة و إيقاعات الحياة الإجتماعية بل هو جزء منها.